قِصَّةُ آيَةٍ

31

الله تعالى يرد على اليهود والمنافقين

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



قالَ (تعالَى) :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن
تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢١-١٢٣]

بعدَ هزيمَةِ الْمُشْرِكينَ في بَدْرٍ ، اجْتَمَعَ رأْيُ كُبَرائِهِمْ وزُعَمائِهِمْ على الثَّأْرِ لِقَتْلاهُمْ والانْتِقامِ مِنَ المسلمينَ ، فخَرَجوا في جَيْشٍ كَبيرٍ قِوامُهُ ثلاثَةُ آلافِ مُقاتِلٍ .

وعنْدَمَا عَلِمَ الرَّسولُ ﷺ بذلكَ جمعَ أَصْحابَهُ وشَاوَرَهمْ فى الأَمْرِ ، وعرضَ عليهمُ الْبَقاءَ فى الْمَدينَة أوِ الْخروجَ منها لِمُلاقَاة الْعَدُوِّ .

وكانَ بعضُ الْمسلمينَ الصَّادقِينَ يَرَوْنَ أَنْ يَبْقَوْا فى الْمدينَة ، حتَّى إِذا هاجَمَهُمُ الْمُشْرِكون رَدُّوا عليهمْ واسْتَعانوا بأَهْلِ الْمدينَة فى قتَالِهمْ ، وكانَ عبدُ اللَّه بنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ يَميلُ هو وأَصْحابُهُ إِلى هذا الرَّأْيِ .

لكنَّ أَغْلَبيَّةَ الصَّحابَة ، وخاصَّةً الذينَ لمْ يكُنْ لهُمْ شَرَفُ الْقِتالِ معَ الرَّسولِ ﷺ فى بَدْرٍ قَالوا :

ـ يا رسـولَ اللَّهِ ، اخْـرُجْ بنا إلى أَعْـدائِنا ، حتَّى لا يظُـنُّوا أَنَّنا جَبُنَّا وضَعُفْنا .

ووافقَ الرسـولُ ﷺ علَى رأْيِ الْجـمـاعـةِ ، فدخلَ بَيْتَهُ ، ولَبِسَ درْعَهُ وأَخذ سلاحَهُ ، ولما رآه الْمُـسْلونَ الذين أَلَحُّـوا علَيْـه بالْخُـرُوجِ لابِسًا دِرْعَهُ ، ظَنُّوا أَنهم قَدِ استكْرَهُوهُ فقالُوا :

ـ اسْتَكْرَهْنَاكَ يا رسُولَ اللَّهِ ، ولَمْ يكُنْ لنا ذلكَ ، فإِنْ شئْتَ فاقْعُدْ .

فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ :

ـ ما يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ ـ أَيْ دِرْعَهُ ـ أَنْ يَضَعَهَا حتى يُقَاتِلَ .

وخـــرجَ رســـولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَلْفٍ مِنْ

أَصْحابِهِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَصِلوا إِلى جبلِ أُحُدٍ الذى دارت الْمَعْرِكَةُ عِنْدَهُ ، قررَ عبدُ اللَّهِ بْنُ أُبىٍّ بْنِ سَلُولٍ الانْسِحابَ والتَّراجُعَ وقالَ :

ـ لقَدْ عَصانِى مُحمدٌ وأَطاعَ الْوِلْدانَ الَّذينَ لا رَأْىَ لَهُمْ ، وما نَدرِى عَلامَ نُهْلِكُ أَنْفُسَنا إذَنْ ؟

وعَسْكَرَ النبىُّ ﷺ وأَصْحابُهُ بعْدَ انْسحابِ عبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبىٍّ وسَائِرِ الْمنافِقِينَ بالْقُرْبِ من جَبَلِ أُحُدٍ ، وأَمَرَ خَمْسِينَ رامِيَا مِنْ صَحابَتِهِ أَنْ يَبْقَوْا فَوْقَ جَبَلِ أُحُدٍ حتى يَحْمُوا الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَلْفِ وقالَ لهمْ :

ـ قُومُوا على مَصافِّكُمْ هذه فاحْمُوا ظُهُورَنا ، فإِنْ رأَيْتُمُونَا قَدِ انْتَصَرْنَا فلا تشْرَكُونا ، وإِنْ رأَيْتُمُونا نُقْتَلُ فلا تَنْصُرُونا .

وكانَ الرسولُ ﷺ يَقْصِدُ بذلك أَنْ يَبْقَى الرُّمَاةُ فَوْقَ الْجَبَلِ مَهْما كانتِ الظُّرُوفُ ، لأَنه قدْ وضعَ خِطَّتَهُ الْحَرْبِيَّةَ بدقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ ، فلا يُريدُ أَنْ تكونَ هُناكَ ثُغْرَةٌ .

وبدأَتِ الْمَعْرَكَةُ وحَمِيتِ الْحَرْبُ ، وكانَتْ كِفَّةُ الْمُسْلمينَ هى الأَرْجَحُ فى الْبِدايةِ ، حتى إِنَّ الْمُشْرِكينَ هَرَبوا مِنْ سَاحَةِ

الْقتالِ ، فتبِعهم الْمُسلمون يقْتُلُون منْهمُ الْكثيرَ ويأْخذون الْغَنَائِم .

ورأى الرُّمَاةُ ذلك فَظَنُّوا أَنَّ الْحَرْبَ قد انْتهتْ فنَزلوا وراحُوا يُلاحِقُونَ الْعَدُوَّ مع سائِرِ الصَّحابَةِ ، ولمْ يَبْقَ مِن الرُّمَاةِ سِوى عبْد اللَّه بنِ جُبيْرٍ وعَدَدٌ يسيرٌ مِن الصَّحابَة وقال :

ـ واللَّه لا أُجَاوِزُ أَمْرَ رسولِ اللَّه ﷺ .

ونظَرَ خالدُ بْنُ الْوَلِيد وكانَ وقْتَهَا قائداً لِجَيْشِ الْمُشْرِكينَ إِلَى خُلُوِّ الْجَبَلِ منَ الرُّماة ، فرجعَ بِخَيْلِه منَ الْخَلْف فَقَتَلَ مَنْ بَقِيَ مِن الرُّمَاةِ ثم أَخَذُوا يَهْجُمُونَ على الْمُسْلِمين

مِنَ الْخَلْفِ .

ورأَى الْمُسْلِمون جُيُوشَ الْمُشْرِكينَ تأْتِيهِمْ مِنَ الْخَلْفِ ومِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ ، فملأَ الرُّعْبُ قُلُوبَهُمْ وفَقَدوا توازُنَهُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَتَوقَّعوا ذلكَ ، وراحَ الْمُشْرِكونَ يُلاحِقُونَ الْمُسلمين ويَقْتُلُونَ مِنْهُمُ الأَعْدادَ الْكَثِيرَةَ ، حتى إِنَّ رُبَاعِيَّةَ الرَّسولِ ﷺ قدْ كُسِرَتْ - الرَّباعِيَّةُ هِيَ السِّنُّ الْمُجاوِرَةُ لِلنَّابِ - وشُجَّ في وجْهِهِ ، وجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ على وجْهِهِ الْكَرِيمِ فَيَمْسَحُهُ وهو يَقولُ :

- كيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وجْهَ نَبِيِّهِمْ وهو

يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ؟

وأَشَاعَ الْكُفَّارُ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قد قُتِلَ ، وكانَتْ هذه الشَّائعَةُ قاصِمَةَ الظَّهْرِ حيثُ أَدْخَلَت الرُّعْبَ فى قُلُوبِ بعْضِ الْمُسْلِمينَ حتى قالَ بعْضُ ضِعافِ الإِيمانِ :

ـ إِذَا كانَ الرَّسُولُ قدْ قُتِلَ ، فما الْفَائدَةُ مِنْ بقَائنا هنا ؟

وراحُوا يُوَلُّونَ الأَدْبارَ . ونظَرَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ إِليهمْ فقالَ يستَحِثُّهُمْ على الثَّباتِ والْقتالِ والصُّمودِ :

ـ وإِذَا انسَحبْتُمْ ووَلَّيْتُمُ الأَدْبارَ ، فما فَائدَةُ حَيَاتِكُمْ بَعْدَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ؟

لكنَّهمْ واصَلُوا انْسحَابَهُمْ وتَخاذُلَهُمْ فقالَ أَنَس بْنُ النَّضرِ :

ـ اللَّهُمَّ إِنى أبْرَأُ إِلَيْكَ مما يُقولُ هؤلاءِ ، وأَعْتذِرُ إِلَيْكَ مما يقُولُ هَؤُلاء .

وتجلَّى فى هذا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ مَظْهَرٌ رَائِع للتَّضْحِيَةَ والْفداءِ من صَحابَة الرَّسول ﷺ ، فـعنْدَمَـا أرادَ الرَّسـولُ ﷺ أنْ ينْظُرَ إِلَى الْمُشْرِكينَ خاف علَيْه الصَّحابِىُّ الْجَليلُ أَبُو طَلْحَةَ أَنْ يُصيبَهُ سَهْمٌ مِنْ سِهامِ الْعَدُوِّ فقالَ له :

ـ بأَبِى أَنْتَ وأُمِّى لا تَفْعَلْ يا رَسولَ اللَّه ، حتَّى لا يُصِيبَكَ سَهْمٌ مِنْ سِهامِ الْقَوْمِ ،

نَحْرِى دُونَ نَحْرِكَ يا رَسُولَ اللَّه .

ووقَفَ أَبُو دُجَانَة خَلْفَ رسُولِ اللَّه ﷺ لِكَىْ يَصُدَّ عَنْهُ سِهَامَ الْمشركِينَ ، وتتَابَعت السِّهَامُ عليه مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وهو صَامِدٌ لا يتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِه وفعلَ كَثيرٌ مِنَ الصَّحابَة مِثْلَ ذلكَ حتَّى قُتِلوا فى سَبيلِ اللَّه .

وتَشَبَّثَتْ حَلْقَتَانِ من دِرْعِ الْمِغْفَرِ فى وَجْه الرَّسولِ ﷺ ، فانْتَزَعَهُمَا أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الْجَرَّاحِ وعَضَّ عليْهِما بأَسْنانِه حتى سَقَطَت اثْنَتَانِ منْها .

يقولُ أَحدُ الْمسلمينَ مِمَّنْ شَهِدُوا هذه الْغَزْوَةَ :

ـ شَهِدْتُ أُحُدًا فَنظرْتُ إلى النَّبْلِ تأتى مِنْ كُلِّ نَاحيَةٍ ، ورسولُ اللَّه ﷺ وسْطَها لا يُصيبُهُ شَيْءٌ مِنْها ، كلُّ ذلك يُصْرَفُ عَنْه .

ولقدْ رأَيْتُ أحدَ الْمشركينَ وهو عبدُ اللَّه ابنُ شِهابٍ الزُّهْرِيُّ يقُولُ :

ـ دِلُّونى على مُحمدٍ ، فلا نَجَوْتُ إنْ نَجا .

وكانَ رسولُ اللَّه ﷺ بجوارِه فَمَرَّ به دُونَ أَنْ يَراهُ ، فَعَاتَبَهُ فى ذلكَ صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ فقالَ ابْنُ شِهابٍ :

ـ واللَّه ما رَأَيْتُهُ ، أحْلفُ باللَّه إنَّهُ منَّا لَمَمْنُوعٌ ! خَرَجْنا أَرْبَعَةً فتَعَاهَدْنَا وتعاقَدْنَا علَى قتْله فلمْ نَخْلُصْ إلى ذَلك .

ولَمَّا انْتَهتِ الْمعْركَةُ تفَقَّدَ الرَّسولُ ﷺ

الْقَتْلَى وأَمَرَ بأَنْ يُدْفَنُوا بِدِمَائِهِمْ وقالَ :

ـ أَنا شَهيدٌ عَلَى هَؤُلاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وانْتَهَزَ الْيَهودُ والْمُنافِقونَ الْفُرْصَةَ فأَظْهَرُوا الشَّمَاتَةَ بالْمُسْلمِينَ .

وكانَ عَبْدُ اللَّهِ بنْ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ زعيمُ الْمنافِقينَ أَكْثَرَ النَّاسِ شَمَاتَةً بالْمُسْلِمين ، حيْثُ الْتَقَى بالْمُسْلِمين وقالَ لهمْ :

ـ لوْ أَطَعْتُمُونا ما قُتِلَ مِنكُمْ مَنْ قُتِلَ .

وراحَ يَقولُ :

ـ أَيْنَ النَّصرُ الذى وعَدنَا به مُحَمَّدٌ ؟

لِماذا لم يَنْصُرْهُ اللَّهُ على أَعدائه مِنَ الْمُشْركينَ .

وبعْدَ أَنْ كثُرَ كلامُ الْيَهود والْمنافقينَ ، وزادَ تَشْكيكُهُمْ فِى الإِسْلامِ أَنْزَلَ اللَّهُ (تعالَى) آياتٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمرانَ تدْحَضُ مَزاعِمَ هؤلاءِ .

وهَذه الآياتُ هِى قَوْلُهُ (تعالى) :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة آل عمران : ١٢١، ١٢٢]

وقدْ نزلَت الآيةُ الثَّانيةُ : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائفتان منْكُمْ أن تَفْشَلاَ ﴾ فى جماعةٍ من الأَنْصار كادُوا يتأَثَّرون بِكلامِ عبْدِ اللَّه بنِ أُبَىٍّ بْنِ سلُولٍ وينْسَحبونَ مِنَ الْمعرَكَةِ ، لكنَّ اللَّهَ (تعالَى) ثبَّتَ قلُوبَهُمْ وحَفِظَهُمْ مِنَ اتِّباعِ الْمُنافقينَ فَبَقَوْا

حتَّى النِّهايَةِ ولمْ يَنْسَحِبوا .

وقدْ سأَلَ الْمسورُ بنُ مَخْرمَةَ الصَّحابيَّ الْجَليلَ عبدَ الرَّحْمنِ بنَ عَوْفٍ وقالَ لهُ :

ـ أيْ خَالي ، أَخْبِرْني عَنْ قصَّتِكُمْ يومَ أُحُدٍ .

فقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ :

ـ إقْرَإِ الْعِشْرينَ ومائةً من آلِ عِمْرانَ : ﴿ وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنينَ ﴾ إلى قولِه (تعالَى) : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا . . ﴾ .

تَجِدْ أنَّ مَعْركَةَ أُحُدٍ ، برغْمِ هزيمةِ الْمسلمينَ فيها ، وإِصَابَةِ الرَّسولِ ﷺ بجراحٍ كثيرةٍ ، كانَتْ دَرْسًا تعلَّمَ مِنْهُ الْمُسْلمونَ الْكَثيرَ .

وأَوَّلُ الْفَوائِدِ ضَرُورَةُ طَاعَةِ الْقَائِدِ ، فَقَدْ

خَالَفَ الرُّمَاةُ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ فَحدثت الْهَزِيمَةُ .

كذلكَ يَجِبُ ألاَّ يتَولّى الْمسلمونَ أَحَداً مِنَ الْكُفَّارِ والْمنافِقينَ ، لأَنَّ هؤُلاءِ يُضْعِفُونَ وَحْدَةَ الصَّفِّ الإِسْلامِيِّ ، وقد انْكَشَفَ أَمْرُ الْمنافِقينَ فى هذه الْمَعْرَكَة بصُورَةٍ واضِحَةٍ .

كذلكَ يَجبُ عَدَمُ التَّخاذُلِ عنْ نُصْرَةِ الرَّسولِ ﷺ حيًّا وميِّتًا ، فقدْ رأَيْنا الصَّحابَةَ يَموتُونَ من حولِه حتى لا يصِلَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ أَوْ يُصَابَ بأَذى ، فلا أَقَلَّ من أَنْ نُدافِعَ عَنْ سُنَّتِه ونَتمسَّكَ بها ونعْمَلَ بِهَدْيِه صلوات ربِّي وسَلاَمُهُ عليْه .

رقم الإيداع : ١٦١٢٢ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى : ٩-٦٩٧-٢٦٦-٩٧٧